المجمع 5 (2011/1432)، 129-148

الطباق بين القدماء والمعاصرين[1]

فهد أبو خضرة

تلخيص:

يتناول الباحث في هذه الدراسة موضوع الطباق بين القدماء والمعاصرين، معتمدًا على عدد من المراجع البلاغية القديمة والحديثة، وهو يبدأ بتعريف الطباق مبرزًا نقطة أساسية جدًا لم تُشر إليها المراجع القديمة قطّ، وهي وجوب كون المتضادّيْن دائما من مجال دلالي واحد، وكون الاختلاف بينهما اختلافًا دلاليًا فرعيًا داخل ذلك المجال.

ثمّ ينتقل إلى التقسيمات العديدة التي نجدها للطباق في الكتب البلاغية المتأخرة، أي التي كتبت في أواخر القرن السادس الهجري وما بعده، مشيرًا إلى اختلافها عن الكتب البلاغية القديمة، أي التي كتبت قبل القرن المذكور، ذاكرًا أن الكتب القديمة تكاد تخلو من التقسيمات.

ويلاحظ الباحث أن معظم الدراسات البلاغية المعاصرة سارت في أعقاب كتب البلاغة المتأخرة، معتمدة تقسيماتها كلها، ومضيفة إليها تقسيمات أخرى.

بعد هذا يتحدّث بالتفصيل عن أربعة أقسام وردت في الكتب البلاغية المتأخرة، وهي: الطباق اللفظي، الطباق المعنوي، الملحق بالطباق، إيهام الطباق.

ويُتبع هذا بحديث مفصل عن أبرز تقسيمين من التقسيمات التي أضافها المعاصرون، وهما: تقسيم البلاغيين، ويشمل أربعة وجوه: التناقض، التضاد، التضايف، التخالف؛ وتقسيم اللغويين، ويشمل خمسة وجوه: التضاد الحادّ، التضادّ المتدرج، التضادّ العكسي، التضاد الاتجاهي والتضاد العمودي.

ثم ينتقل لتقديم اقتراح للتقسيم يعتبره كافيًا وواضحًا، وهو يضم الضروب الأربعة التالية: طباق الإيجاب، طباق السلب، الطباق المعنوي وإيهام الطباق.

ويقف في الختام مع عدد من الآراء التقييميّة التي تتناول الطباق كنوع بلاغي، ويخلص إلى القول: إن إطلاق أحكام تقييمية عامّة عن أي نوع بلاغي لا يمكن أن يكون مقبولاً، والأصح أن يحكم على كل نوع من خلال دراسة النصوص التي استعمل فيها، وتحليل الوظيفة المعنوية والجمالية التي أداها في تلك النصوص.

[1] المصطلحات البديلة: المطابقة – التطبيق – التضادّ – مجاورة الأضداد – التكافؤ – المقاسمة.

هو الجمع بين متضادّين أو شبه متضادّين، في بيت من الشعر أو فقرة من النثر، معنى ولفظًا أو معنى فقط، سواء كان المتضادّان بلفظ الحقيقة أو بلفظ المجاز، وسواء كانا من قسم واحد من أقسام الكلام أو من قسمين مختلفين[2]. وشرط المتضادّين أن يكونا دائمًا من مجال دلالي واحد.

والتضادّ هو نوع من العلاقة بين المعاني، بل ربما كان أقرب إلى الذهن من أي نوع آخر من أنواع العلاقات، ذلك لأن ذكر أي معنى من المعاني يدعو إلى الذهن، أول ما يدعو، المعنى المضادّ له.

وقد ذكرت الدراسات الدلاليّة الحديثة، في بحثها للتضادّ، أن الخاصّيّة الأساسية للمتضادّين هو كونهما ينتميان لمجال دلاليّ واحد، وكون الاختلاف الموجود بينهما اختلافًا دلاليًّا فرعيّا داخل ذلك المجال. فالمتضادّان: مذكّر ومؤنّث مثلا، ينتميان للمجال الدلاليّ الذي يتعلّق بالجنس،

[2] انظر عن الطباق المراجع التالية:

- أبو هلال العسكري. **كتاب الصناعتين**. تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (د.م: عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1971)، 316-329.
- ابن رشيق القيرواني. **العمدة**. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. ج2 (بيروت-لبنان: دار الجيل، 1972،4)، 5-15.
- ابن أبي الإصبع المصري. **تحرير التحبير**. تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف (القاهرة: د.ن، 1963)، 111-115.
- ابن حجي الحموي. **خزانة الأدب وغاية الأرب** (د.م: دار القاموس الحديث، 1304هجري)، 69-77.
- الخطيب القزويني. **الإيضاح في علوم البلاغة**. تحقيق: عبد القادر الفاضلي (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، 2001)، 333-338.
- أسامة ابن منقذ. **البديع في نقد الشعر**. تحقيق: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد (مصر-القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1960)، 36-40.
- عبد العزيز عتيق. **علم البديع** (القاهرة: الآفاق العربية، 2004)، 59-65.
- أحمد مطلوب. **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها** (بيروت-لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، 2000)، 367-371.
- عبد الرحمن حسن الميداني. **البلاغة العربية**. ج2 (بيروت: دار القلم، دمشق: الدار الشامية، 1996)، 93-96.
- عبد العظيم المطعني. **البديع من المعاني والألفاظ** (القاهرة: مكتبة وهبة، 2002)، 7-15.

ولكنهما يختلفان بعد ذلك في التصنيف الفرعي داخل ذلك المجال، والمتضادّان: متزوّج وأعزب ينتميان للمجال الدلاليّ الذي يتعلق بالحالة الاجتماعية، ولكنهما يختلفان بعد ذلك في التصنيف الفرعيّ. ولا بدّ في كل الحالات من وجود ملمح واحد على الأقل يفرّق بين هذين المتضادّين، حيث يكون هذا الملمح موجودًا في الأوّل وغير موجود في الثاني[3].

إن هذه النقطة في غاية الأهمية بالنسبة للنوع البلاغي الذي ندرسه، ورغم ذلك فإن البلاغيين العرب لم يشيروا إليها قطّ.

ويلفت النظر منذ البداية أن هؤلاء البلاغيين قد صرفوا اهتمامهم إلى نقاط معيّنة ظلوا يكرّرون معظمها جيلًا بعد جيل منذ العصور الوسطى وحتى أيامنا هذه.

وسيولي هذا البحث اهتمامًا كبيرًا لهذه النقاط، شرحًا ومناقشة.

تميّزت كتب البلاغة العربية المتأخرة[4] بتقسيماتها العديدة التي أوردتها لهذا النوع البلاغي، إذ قسمته أوّلًا إلى قسمين، هما: الطباق اللفظيّ والطباق المعنويّ، ثم قسمت اللفظيّ إلى ضربين هما: الطباق الحقيقيّ والطباق المجازي، ثم أوردت للأوّل فرعين، هما: طباق الإيجاب وطباق السلب[5]، ثم أردفت هذا كله بما يمكن اعتباره قسمين آخرين، سمّت الأوّل منهما الملحق بالطباق، وسمّت الثاني إيهام الطباق.

---

[3] انظر مثلا: أحمد مختار عمر. **علم الدلالة** (الكويت: د.ن،1983)، 100.

[4] وهي التي كتبت في أواخر القرن السادس هجري وما بعده.

[5] أضاف بعض البلاغيين فرعا ثالثا أطلقوا عليه اسم "طباق الترديد"، ومثلوا له بقول الأعشى:

لا يرفع الناس ما أوهوا ولو جهدوا طول الحياة ولا يوهون ما رفعوا

وقول بعض الواعظين: كان الناس ورقا بلا شوك فصاروا شوكا بلا ورق (انظر مثلا: المصري، م.س، 112-115).

ويجدر بالملاحظة، من جهة أولى أن هذين المثالين داخلان في النوع المسمى: العكس أو المقابلة العكسية، وكذلك كل الأمثلة التي تشبههما،ولا حاجة للخلط بين النوعين. ومن جهة ثانية، فإن اعتبار هذين المثالين داخلين في انطباق الحقيقي أمر بحاجة ماسة إلى إعادة النظر.

والخطاطة التالية تبيّن هذا التقسيم:

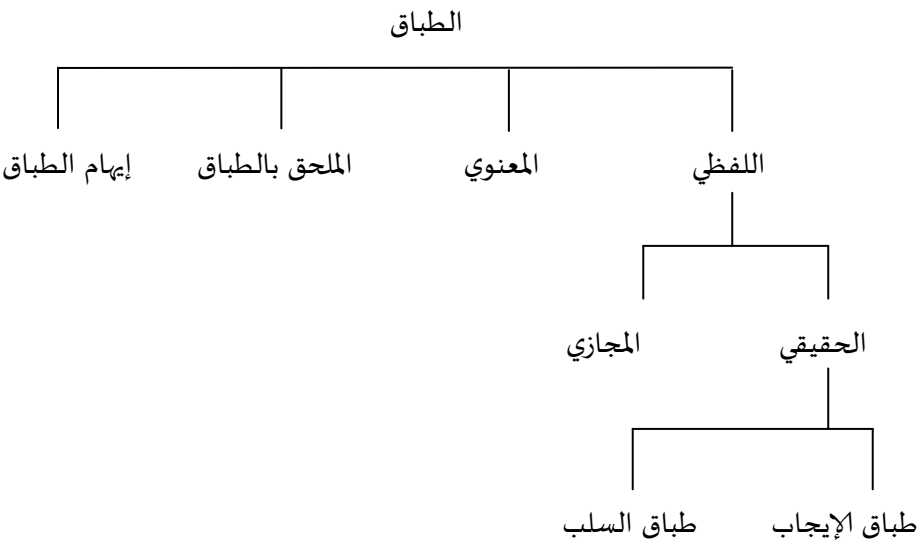

أما كتب البلاغة الأولى[6] فلم تكن فيها تقسيمات كهذه بل إنّها أوردت ضمن الطباق (وقد سمّاه بعضها المطابقة) أمثلة عديدة لمقابلة المضادة وأمثلة عديدة للعكس أو المقابلة العكسية[7]، وكأنهما جزء لا يتجزأ من الطباق[8].

إلا أننا مع ذلك نجد في هذه الكتب أحيانًا ملاحظات هامّة يمكن أن تتّخذ أساسًا للتقسيم. من ذلك مثلًا ما نجده في كتاب "العمدة" للقيرواني من تمييز بين الضدّ والمخالف، حيث قال معلّقا على استعمال لفظ الحليم ضدًّا للجاهل: " لما وجده خلافًا له طابق بينهما كما يفعل بالضدّ، وإن كان الخلاف مقصّرًا عن رتبة الضدّ في المباعدة. والناس متّفقون على أن جميع المخلوقات:

[6] وهي التي كتبت منذ أواخر القرن الهجري الثالث وحتى أواخر القرن الهجري السادس.

[7] هذه الأمثلة وردت في الكتب المتأخرة تحت مصطلح"طباق الترديد" (انظر الملاحظة 4 أعلاه).

[8] انظر مثلا: ابن المعتز: **البديع**. ط21. تقديم وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي (بيروت-لبنان: دار الجيل، 1990)، 124-140؛ العسكري. **م.س**، 316-329؛ القيرواني. **م.س**. ج2، 5-15.

مخالف وموافق ومضادّ، فمتى وقع الخلاف في باب المطابقة فإنما هو على معنى المسامحة وطرح الكلفة والمشقة[9]. والمعاصرون اليوم يميّزون بينهما بوضوح[10].

كما نجد عند القيرواني أيضًا مصطلح "الطباق غير المحض"، وقد أطلقه ليصف العلاقة بين الفعلين: قضيْتُ واقتضيتُ، وكذلك بين الفعلين: أخذتُ وأعطيتُ، ثم علّق على هذا قائلًا: "فهذا ممّا يظنّه من لا يحسن طباقًا، وليس كما ظنّ"[11].

وقد سارت معظم الدراسات البلاغية المعاصرة في أعقاب كتب البلاغة المتأخرة، معتمدة تقسيماتها كلّها، بل إن بعضها أضاف نوعًا آخر من التقسيم يتناول التقابل في المعنى بين طرفي الطباق، حيث قسم هذا التقابل إلى عدة وجوه.

من ذلك مثلًا:

تقابل التناقض، وتقابل التضادّ، وتقابل التضايف، وتقابل التخالف[12].

ومنه:

التضادّ الحادّ، والتضادّ المتدّرج، والتضادّ العكسيّ، والتضادّ الاتّجاهيّ، والتضادّ العموديّ[13].

ولكي يكون هذا النوع البلاغيّ واضحًا بكل تفاصيله، فإنني سأورد كل التقسيمات المذكورة أعلاه عند المتأخرين معرّفةً بإيجاز، وملحقةً بأمثلة مناسبة من الشعر والنثر، تراعى فيها الناحية الجمالية إلى أبعد حدّ ممكن، وإن كان معظمها مكرّرًا، ثم أتبعها بتقسيمات المعاصرين معرّفة ومرافقة بمفردات توضّحها.

هذا مع العلم أننا لا نملك حتى الآن أي تقسيم موسّع كامل قادر على أن يمنع كل إمكانية للتداخل بين أقسامه أو وجوهه، وأن يجعل لكل متضادّين مكانًا واحدًا متّفقًا عليه ضمن هذه الأقسام والوجوه.

---

[9] القيرواني. **م.س**. ج2، 10. وانظر مطلوب: **م.س**، 607 عن المخالف.

[10] انظر ما يلي: **تقسيمات المعاصرين**.

[11] القيرواني. **م.س**. ج2 ص14.

[12] انظر: الميداني. **م.س**. ج2، 377.

[13] انظر: **علم الدلالة**، 100.

أما الحل الذي تبنّته كتب التدريس، حين اكتفت بتقسيم الطباق إلى قسمين هما: طباق الإيجاب وطباق السلب، فقد يكون مريحًا للطلاب، ولكنّه أضيق من أن يلبّي حاجة الباحثين وأن يستوعب النواحي الجمالية التي تتجاوز السطح في هذا النوع البلاغي.

وعليه، فإن الباحث سيقدّم في نهاية هذا البحث اقتراحًا متواضعًا بتقسيمات محدودة تقف وسطًا بين التوسيع المملّ والتضييق المخلّ.

أما الآن، وقبل إيراد تقسيمات البلاغيين، فلا بدّ من التوقف عند ثلاث نقاط تستحقّ إعادة النظر وإبداء الرأي، وهي:

النقطة الأولى:

اشترط بعض البلاغيين أن يكون المتضادّان في الطباق من قسم واحد من أقسام الكلام، ولكنَ أمثلة كثيرة وردت عندهم في الطباق المجازي تجمع بين اسم وفعل، وتنقض بذلك ما اشترطوه. ويبدو أن الشرط عندهم كان يراعى في الطباق الحقيقيّ فقط، وذلك في معظم الحالات لا كلَها. ومن هنا فقد تجاهل الباحث شرطهم في التعريف العام لهذا النوع البلاغي، وسيتجاهله في الطباق المجازيّ لاحقًا. والأفضل في رأي الباحث أن يُحذف هذا الشرط من تعريف الطباق الحقيقي أيضًا، خاصة وأن بعض الأمثلة عند البلاغيين، وإن تكن قليلة، قد جمعت بين اسم وفعل في هذا الضرب من الطباق، دون أن يرد عليها أي تعليق، من هذه الأمثلة قول يحيى بن خالد لهارون الرشيد: يا أمير المؤمنين، إن كان الذنب لي خاصًّا فلا تَعُمَّنَّ بالعقوبة.

وقول الحطيئة:

هم القوم الذين إذا ألمّت من الأيام مظلمةٌ أضاؤوا

ولا شك أن ما أورده القزويني في كتاب "التلخيص" يصلح معتمدًا هامًّا في هذا المجال، وذلك قوله: "المطابقة، وتسمى الطباق والتضادّ أيضًا وهي الجمع بين متضادّين أي معنيين متقابلين في

الجملة، ويكون بلفظين من نوع اسمين أو فعلين أو حرفين أو من نوعين، نحو: أو من كان ميتًا فأحييناه".[14]

النقطة الثانية:

قصر معظم البلاغيين طباق السلب على الجمع بين فعلي مصدر واحد في حالتي الإثبات والنفي أو في حالتي الأمر والنهي، وأخرجوا منه بذلك الجمع بين حالتي الإثبات والنفي للاسم نفسه أو الحرف نفسه، مع وجود ذلك الجمع في الشعر والنثر، كقول أبي العتاهية:

لا تلمني على التي فتنتني وأرتني القبيح غير قبيح

حيث جمع بين حالتي الإثبات والنفي للاسم نفسه:

القبيح – غير قبيح

وقول شاعر آخر:

وعليّ أن أسعى وَلَيْـ ـس عليّ إدراك النجاح

حيث جمع بين حالتي الإثبات والنفي للحرف نفسه: عليّ – ليس عليّ.

ومثل هذا قول أحدهم:

لك منّي الدعم، وما لك منّي الضمان.

ومع أن الجمع بين فعلي مصدر واحد هو الأكثر دورانًا في الشعر والنثر، فإنني لا أرى سببًا مقنعًا يمنع الجمع بين حالتي الإثبات والنفي للاسم نفسه أو الحرف نفسه في هذا الفرع من الطباق.

بالإضافة إلى ما سبق فإن البلاغيين لم يصرّحوا بإمكانية الجمع بين فعل مثبت واسم منفيّ، أو العكس, ولكننا نجد في كتبهم أمثلة على ذلك، مما يدلّ على أن إمكانية الجمع واردة.

من هذه الأمثلة قول جرير:

أنصحو أم فؤادك غير صاحي عشيّة همّ صحبك بالرواح

حيث طابق بين الفعل المثبت "تصحو" والاسم المنفيّ "صاحي" (غير صاحي).

[14] انظر : الخطيب القزويني. **التلخيص في علوم البلاغة**. ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت)، 349.

وقول شاعر آخر:

لعمري لئن طال الفضيل بن ديسم مع الظـلّ مـا إن رأيـه بطـويــل

حيث طابق بين الفعل المثبت "طال" والاسم المنفي "طويل".

وقد قال المطعني بهذا الخصوص: "ومن طباق السلب قوله تعالى (من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة)، وهذا المثال لم يشمله التعريف لأنهم خصوا طباق السلب بالأفعال دون الأسماء، كما هو واضح من تعريفهم له. وكان ينبغي أن يكون التعريف شاملًا لأنواع المعرّف. فإذا أبوا أن يكون هذا المثال من طباق السلب, لأنه ليس جاريًا على التعريف، كان ذلك بمنأى عن الصواب. وقد رأيت بحاشية الدّسوقي ما يؤيد هذه النظرة، وكذلك فعل صاحب الأطوال"[15].

النقطة الثالثة:

اختلف البلاغيون بالنسبة للألوان، فاعتبرها بعض القدماء من الطباق الحقيقيّ، بينما اعتبرها بعضهم الآخر من إيهام الطباق. من الأمثلة التي وردت عندهم على الطباق الحقيقي قول أبي تمّام:

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهـنَ جـلاء الشك والريـَبِ

حيث طابق بين بيض وسود.

ومن الأمثلة التي وردت عندهم على إيهام الطباق استعمال اللون الأبيض مقابل الأغبر.

وقد تعرّض القيرواني للتضادّ في الألوان فقال:"وقال الرّماني وغيره: السواد والبياض ضدّان، وسائر الألوان يضادّ كلّ منها صاحبه، إلا أن البياض ضد السواد على الحقيقة"[16]. وقد ورد قوله هذا بعد تمييزه بين الضد والمخالف، وفي ذلك ما يشير إلى أنه يعتبر كل لون آخر غير السواد والبياض مخالفا لصاحبه لا ضدًا له فيكون الطباق فيه على سبيل المسامحة بحسب تعبيره.

[15] المطعني. م.س، ج2، 11.

[16] القيرواني. م.س، 13-14.

وقد قال الحموي عند ذكر البياض والسواد: "وليس في الألوان ما تحصل به المطابقة غيرهما"، وأضاف: "فقد قال الرّماني وغيره: البياض والسواد ضدّان، بخلاف بقية الألوان"، ثم أشار إلى أنهم ألحقوا بقية الألوان بالمطابقة[17].

أما المعاصرون فاعتبر بعضهم الألوان من الطباق الحقيقي، وبعضهم من إيهام الطباق، وبعضهم من تقابل التضادّ.

والأفضل في رأي الباحث أن تعتبر داخلة في إيهام الطباق إذا اخترنا التقسيمات القديمة، وداخلة في تقابل التخالف إذا اخترنا التقسيمات المعاصرة. وسيعيّن مكانها لاحقًا في التقسيم الذي سيقترحه الباحث.

أما التقسيمات القديمة والمعاصرة فهي على النحو التالي:

التقسيمات القديمة: أولا

يُقسم الطباق بحسب هذه التقسيمات إلى أربعة أقسام، هي: الطباق اللفظي – الطباق المعنوي – الملحق بالطباق – إيهام الطباق.

القسم الأول: الطباق اللفظي:

هو الطباق الذي يكون فيه التقابل بين المتضادّين لفظًا ومعنى لا معنى فقط.

وهو يضم ضربين، هما: الطباق الحقيقي والطباق المجازي.

1.**الطباق الحقيقي**: هو الطباق الذي يرد فيه كل من المتضادّين بلفظ الحقيقة.

وله عند معظم البلاغيين فرعان، هما: طباق الإيجاب وطباق السلب.

أما طباق الإيجاب فهو الطباق الحقيقي الذي يجمع بين الاسم وضده أو الفعل وضدّه أو الحرف وضدّه.

وأما طباق السلب فهو عند جمهور البلاغيين الطباق الحقيقي الذي يرد فيه فعل معيّن في حالتي الإثبات والنفي، أو في حالتي الأمر والنهي.

[17] الحموي. **خزانة الأدب**، 69.

من الأمثلة على طباق الإيجاب قوله تعالى: "وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود" (سورة الكهف، الآية 18)، حيث طابق بين الاسمين أيقاظ ورقود.

وقول أحمد شوقي:

أحرام على بلابله الدَو ح حلال للطير من كل جنس

حيث طابق بين الاسمين: حرام وحلال.

وقول امرئ القيس في وصف حصانه:

مكرّ مفرّ مقبلّ مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من علِ

حيث نجد طباقين: الأول بين الاسمين: مكرّ ومفرّ، والثاني بين الاسمين: مقبل ومدبر. والطباقان كلاهما في الشطر الأول.

وقول شاعر آخر في وصف شَعْره وما جدّ عليه من الشَّيب:

حتّى كأن قديمه وحديثه ليل تلفّع مدبرًا بنهار

حيث طابق في الشطر الأول بين الاسمين: قديم وحديث، وطابق في الشطر الثاني بين الاسمين: ليل ونهار.

وقول الحصين بن الحمام المرّيّ:

تأخّرتُ أسبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدّما

حيث طابق بين الفعلين: تأخرّت وأتقدّم.

وقول أبي صخر الهذليّ:

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر

حيث طابق بين الفعلين: أبكى وأضحك، في الشطر الأول، ثم بين الفعلين: أمات وأحيا، في الشطر الثاني.

وقول أبي تمام:

أبغضوا عزّكم وودّوا نداكم فقروكم من بغضة ووداد

حيث طابق في الشطر الأول بين الفعلين: أبغضوا وودّوا، وطابق في الشطر الثاني بين الاسمين: بغضة ووداد.

وقول شاعر آخر:

على أنّني راضٍ بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا عليّ ولا ليا

حيث طابق بين حرفي الجر المتصلين بضمير المتكلم: عليّ ولي، فالحرف "على" يحمل هنا التضرّر، بينما حرف اللام يحمل معنى الانتفاع، والمعنيان متضادّان.

ومن الأمثلة على طباق السلب قوله تعالى " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" (سورة الزّمر، الآية 9)، حيث طابق بين حالتي الإثبات والنفي للفعل "يعلمون".

وقول الشاعر:

رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

حيث ورد الفعل "رزق" في حالتي الإثبات والنفي، متصلًا بواو الجماعة، في الشطر الثاني.

(أما الفعل "رزق" الوارد في الشطر الأول في حالتي الإثبات والنفي ومتصلًا أيضًا بواو الجماعة فهو داخل في الترديد لا الطباق، وذلك لاختلاف الصلة في الحالتين، فقد ورد في الحالة الأولى بدون مفعوله الثاني الذي نقدره بحسب السياق: مالًا، بينما ورد في الحالة الثانية مع مفعوله الثاني وهو: سماحَ يدٍ).

وقول السموأل:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

حيث طابق بين حالتي الفعل: ننكر ولا ينكرون.

وقوله تعالى:" ولا تخشوا الناس واخشون" (سورة المائدة، الآية 3)، حيث طابق بين حالتي الفعل "يخشى" في النهي والأمر.

ومثل هذا قوله عز وجلّ:"فلا تخشوهم واخشوني" (سورة البقرة، الآية 150).

2-**الطباق المجازي**: هو الطباق الذي يرد فيه كل من المتضادّين بلفظ المجاز، سواء كانا من قسم واحد من أقسام الكلام أو من قسمين مختلفين.

من الأمثلة عليه قوله تعالى "ليخرجكم من الظلمات إلى النور" (سورة الأحزاب، الآية 43)، حيث طابق بين الاسمين: الظلمات والنور، وكلاهما مجاز هنا، لأن المقصود بالظلمات هو الكفر، والمقصود بالنور هو الإيمان.

وقوله عزّ وجلّ: "أو من كان ميتًا فأحييناه" (سورة الأنعام ، الآية 122)، حيث طابق بين اسم وفعل: ميتا- فأحييناه، وكلاهما مجاز، لأن المقصود: من كان ضالّا فهديناه.

وقول أحد الشعراء:

لقد أحيا المكارم بعد موت وشاد بناءها بعد انهدام

حيث طابق في كل شطر بين اسم وفعل، والكلمات كلها بلفظ المجاز، لأن إحياء المكارم وموتها وبناءها وانهدامها مجاز لا حقيقة.

وقول شاعر آخر:

وضحك المزن بها ثم بكى

حيث طابق بين الفعلين: ضحك وبكى، وكلاهما بلفظ المجاز، لأن المزن لا يضحك ولا يبكي على الحقيقة.

القسم الثاني: الطباق المعنوي:

هو الطباق الذي يتقابل فيه المتضادّان معنى لا لفظا.

من الأمثلة عليه قول المقنّع الكندي:

لهم جلّ مالي إن تتابع لي غنى وإن قلّ مالي لم أكلّفهمُ رفدا

حيث طابق بين الجملتين: تتابع لي غنى- قلّ مالي، وذلك لأنّ الأولى تضادّ الثانية في معناها، فتتابع الغنى يعني كثرة المال.

وقول شاعر آخر:

فإن تقتلوني في الحديد فإنني قتلت أخاكم مطلقا لم يقيّد

حيث طابق بين شبه الجملة "في الحديد" والاسم "مطلقا"، وذلك لأن التعبير "في الحديد" يعني مقيّدا، فهو يضادّ في معناه كلمة مطلق.

وقول بشار بن برد:

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

حيث طابق بين الجملتين: عش واحدا- صل أخاك، لأن الأولى تضادّ الثانية في معناها، فالأولى تأمر بالمقاطعة والثانية تأمر بالوصل.

القسم الثالث: الملحق بالطباق:

هو الجمع بين طرفين أحدهما ليس ضدّا للآخر، وإنما هو متعلق بذلك الضد تعلقا معيّنا، مما يجعله شبيها بالضد.

ويسمى هذا القسم أيضا: الطباق الخفيّ وشبيه الضدّ.

من الأمثلة عليه قوله تعالى:" أشدّاء على الكفار رحماء بينهم" (سورة الفتح، الآية 29)، فالشدة ضدها اللين لا الرحمة، ولكن الرحمة ذات علاقة قوية باللين، مما أهّلها لأن تحلّ محلّه، ومن هنا جاء هذا الطباق: أشدّاء- رحماء.

وقول المتنبي:

خُلقت ألوفًا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع الرأس باكيا

فالشيب ضدّه سواد الشعر أو الشعر الأسود لا الصّبا، ولكن الصّبا ذو علاقة وثيقة بسواد الشعر، ممّا أهّله لأن يحلّ محلّه. ومن هنا جاء هذا الطباق: الصبا- شيبي.

ومثل هذا ما نجده في الشطر الأول من قول الفرزدق:

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

حيث طابق بين الشيب والشباب.

وقول قريط بن أنيف:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

فالظلم ضدّه الرحمة لا المغفرة، ولكن المغفرة ذات علاقة وثيقة بالرحمة، مما أهّلها لأن تحلّ محلّها، ومن هنا جاء هذا الطباق: ظلم - مغفرة.

القسم الرابع: إيهام الطباق:

هو الجمع بين لفظين يوهم أحدهما بمعناه الوضعي أو السياقي بأنه ضد للآخر، بينما هو عند التدقيق ليس كذلك.

وهو يسمّى أيضا: إيهام التضادّ.

من الأمثلة عليه قول دعبل الخزاعي:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

حيث طابق بين الفعلين: ضحك وبكى، ولكن الضحك في هذا السياق ليس ضد البكاء، لأنه مستعمل على سبيل المجاز، فهو يشكل استعارة تصريحية تعبر عن انتشار الشيب.

ولو قال الشاعر: انتشر الشيب برأسه فبكى هو، لما كان في البيت أي طباق. وقد نبع إيهام الطباق هنا في المعنى الوضعي للفعل "ضحك"، فهو ضد للفعل "بكى" بمعناه الوضعي.

وقد علَق المصري على هذا البيت فقال: إنه جمع بين لفظي التكافؤ والطباق معا[18]، وهو يعني: بين لفظ مستعمل على المجاز وآخر على الحقيقة (أي بالمعنى الوضعي).

وقول أبي تمام:

تردّى ثياب الموت حُمرا فما أتى له الليل إلا وهي من سندسٍ خُضر

حيث طابق بين اللونين الأحمر والأخضر، وليس لدينا ما يؤكد أن اللون الأخضر قد وضع في أصل اللغة ليكون ضدا للأحمر، ولذا فان ما أوهم بالطباق هنا ليس المعنى الوضعي، وإنما هو المعنى السياقيّ.

وقول جمال الدين بن نباتة:

فما كان بيني وبين اليسار سوى أن مددت إليه اليمينا

[18] المصري. **م.س**، 113.وقد قسم بعض البلاغيين، ومنهم المصري، الطباق إلى نوعين: الأول: ما كان بلفظ الحقيقة، وأطلقوا عليه اسم الطباق، والثاني: ما كان بلفظ المجاز وأطلقوا عليه اسم التكافؤ (انظر : **ن.م**، 111).

حيث طابق بين الاسمين: اليسار واليمين، ولكن اليسار في هذا البيت ليس ضدا لليمين، لأنه مستعمل بمعنى آخر وهو الغنى، وذلك على سبيل التورية، وقد نبع إيهام الطباق هنا من أن الاسم "اليسار" هو في أحد معانيه الوضعية ضد لليمين فعلا. ويلاحظ أن اليسار من المشترك اللفظي. وقوله أيضا:

ذكرتُ والكأس في كفّي لياليكم فالكأس في راحة والقلب في تعب

حيث طابق بين الراحة والتعب. ولكن الراحة في هذا البيت ليست ضدًّا للتعب لأنها استعملت بمعنى آخر هو كف اليد، وذلك على سبيل التورية. وقد نبع إيهام الطباق هنا من أن كلمة الراحة في أحد معانيها الوضعية هي ضد التعب فعلا. ويلاحظ أن الراحة من المشترك اللفظي.

ثانيا: التقسيمات المعاصرة:

أضاف المعاصرون إلى التقسيمات القديمة عدة تقسيمات تتناول وجوه التقابل في المعنى بين طرفي الطباق، كما ذكر أعلاه.

والتقسيمان التاليان هما أبرز هذه التقسيمات:

1- **تقسيم البلاغيين**. وهو يشمل الوجوه الأربعة التالية:

أ-تقابل التناقض. وهو تقابل بين متضادّين لا يجتمعان معا في طرف واحد وحال واحدة، ولا يرتفعان معا. كما أنهما لا يقبلان التدرّج ولا التضايف.

وذلك نحو: الحياة والموت، الحضور والغياب، النوم واليقظة، السر والعلن، الليل والنهار، الوجود والعدم.

فالطرف القابل للوصف بما يشتق من الحياة والموت مثلا لا بدّ أن يكون إما حيًّا وإما ميتا، بالمعنى الوضعي للكلمتين . من هنا فالوصفان لا يجتمعان معا، أي لا يمكن أن يكون هذا الطرف حيّا وميتا في الوقت نفسه، كما أنهما لا يرتفعان معا، أي لا يمكن أن يكون هذا الطرف لا حيّا ولا ميتا. (بالنسبة للتدرج والتضايف انظر ما يلي).

ب- تقابل التضاد. وهو تقابل بين متضادّين لا يجتمعان معا في طرف واحد وحالة واحدة، وليس بينهما تضايف، ولكنهما يرتفعان معا ويقبلان التدرج، نحو: الجوع والشبع، الغنى

والفقر، الكرم والبخل، الصداقة والعداوة، الجمال والدمامة، الطول والقصر، الحرارة والبرودة.

فالطرف القابل للوصف بما يشتق من الجوع والشبع مثلا لا يجمع بينهما في الوقت نفسه، فلا يكون جوعان وشبعان معا، لأنهما لا يجتمعان، ولكنه يمكن أن يكون غير جوعان ولا شبعان، لأنهما يرتفعان معا. وبالإضافة إلى ذلك فان الجوع والشبع قابلان للتدرج، وغير قابلين لأن يضاف أحدهما إلى الآخر.

ج- تقابل التضايف. وهو تقابل بين طرفين بينهما علاقة في الوجود أو التعامل أو المفاضلة، نحو: الأب وابنه، الخالق ومخلوقه، الضيف ومضيفه، المطلوب وطالبه، القتيل وقاتله، المغلوب وغالبه، الأكبر والأصغر بين طرفين معينين، الأقوى والأضعف، الراعي والرعية.

وما يميز هذا التقابل عن غيره هو إمكانية إضافة أحد المتضادين إلى الآخر أو المفاضلة بينهما، فيقال مثلا في إمكانية الإضافة: هذا أبو ذاك، وذاك ابنه، هذا ضيف ذاك، وذاك مضيفه، ويقال في إمكانية المفاضلة: هذا الأكبر بين الاثنين وهذا الأصغر، أو هذا أكبر الاثنين وهذا أصغرهما.

د- تقابل التخالف. وهو تقابل بين طرفين متغايرين ليس بينهما تناقض أو تضادّ أو تضايف، نحو: الخوف والرجاء، الأبيض والأحمر، القصر والكوخ، البر والبحر، الصيف والشتاء، الذئب والحمل.

ويجب الانتباه هنا إلى أن السياق هو العامل الرئيسي في جعل هذا التقابل داخلا في الطباق، لأن الطرفين فيه غير متضادين في الوضع اللغوي.

من الأمثلة على هذا قول خليل مطران:

أنا لا أخاف ولا أُرجّي

حيث تقابل الخوف والرجاء باعتبارهما طباقا.

وقول عمرو بن كلثوم:

بانّا نورد الرايات بِيضا ونصدرهنّ حُمرا قد روينا

حيث تقابل اللونان الأبيض والأحمر باعتبارهما طباقا (داخل مقابلة المضادّة).

2- **تقسيم اللغويين**. وهو يشمل الوجوه الخمسة التالية:

أ- التضادّ الحادّ. وهو تقابل في المعنى لا يقبل التدرج ولا يجتمع طرفاه معا، نحو: حيّ وميت، متزوج وأعزب، الحضور والغياب، الجنة والنار، الصيام والإفطار. وهو معادل لتقابل التناقض.

ب- التضاد المتدرّج. وهو تقابل في المعنى يقبل التدرّج بخلاف سابقه، رغم أنه يماثله في أن طرفيه لا يجتمعان معا، نحو: الحار والبارد، الغنيّ والفقير، القريب والبعيد، الماضي والمستقبل، الإبطاء والإسراع.

إن قبول هذا التضاد للتدرج واضح، فمن المعروف أن هناك مثلا درجات للحرارة ودرجات للبرودة، وهناك درجات للغنى ودرجات للفقر.. وهكذا لا شك أن التدرج يجعل التضاد بين الأطراف نسبيا، لأنه متعلق بدرجات كل طرف لذا يمكن أن يسمى هذا الوجه: التضادّ النسبي. وإذا قارنا هذا الوجه مع وجوه التقسيم السابق وجدنا أنه معادل لتقابل التضادّ.

ج- التضادّ العكسيّ. وهو تقابل في المعنى لا يقبل التدرج، ولكن طرفيه يمكن أن يجتمعا عند شخص واحد في اللحظة نفسها، نحو: باع واشترى، دفع وأخذ، سأل وأجاب، زرع وقلع، أثبت ونفى.

د- التضادّ الاتجاهيّ. وهو تقابل في المعنى خاص بالاتجاهات الأفقية، نحو: شرق وغرب، شمال وجنوب، يمين ويسار. ويمكن أن يوسّع هذا الوجه ليشمل ما بعده.

هـ- التضادّ العموديّ. وهو تقابل في المعنى خاص بالاتجاهات غير الأفقية، نحو: أعلى وأسفل، فوق وتحت.

ولا بأس من اعتبار هذا الوجه داخلا في ما قبله بعد توسيعه.

التقيسم المقترح:

أما التقسيم المتواضع الذي يقترحه الباحث فهو يضم أربعة ضروب، تشمل كل ما ورد في تقسيمات القدماء، دون أية أقسام أو فروع[19]. وهذه الضروب هي:

أ- طباق الإيجاب: وهو يشمل ما ورد في التقسيمات القديمة تحت هذا المصطلح، بالإضافة إلى ما ورد فيها تحت مصطلح الطباق المجازي، وما ورد في إيهام الطباق جامعا المعنى الحقيقي والمجازي معا.

وتعريفه كالتالي: هو الطباق الذي يتقابل فيه المتضادّان لفظا ومعنى، ويكونان كلاهما بلفظ الحقيقة أو بلفظ المجاز، أو يكون أحدهما بلفظ الحقيقة والآخر بلفظ المجاز.

ب- طباق السلب. وهو يشمل ما ورد في التقسيمات القديمة تحت هذا المصطلح موسّعا.

وتعريفه كالتالي: هو الطباق الذي يتقابل فيه المتضادان لفظا ومعنى، ويكون أحدهما مثبتا والآخر منفيا، سواء كانا من قسم واحد من أقسام الكلام أو من قسمين مختلفين، و يكون أحدهما في حالة الأمر والآخر في حالة النهي إذا كانا فعلين.

ويمكن أن يرد كلاهما بلفظ الحقيقة أو بلفظ المجاز، أو يكون الأول حقيقة والثاني مجازًا.

ج- الطباق المعنويّ. وهو يشمل ما ورد في التقسيمات القديمة تحت هذا المصطلح، وما ورد في الملحق بالطباق، وما ورد في إيهام الطباق متعلقا بالسياق.

وتعريفه كما ورد أعلاه: هو الطباق االذي يتقابل فيه المتضادان معنى لا لفظا.

د- إيهام الطباق. وهو هنا أضيق بكثير مما هو في التقسيمات القديمة، إذ يقتصر على ما ورد تحت هذا المصطلح فيها متعلقا بالتورية فقط.

وتعريفه كالتالي: هو الجمع بين لفظين يوهم أحدهما بمعناه الوضعي القريب أنه ضد للآخر، بينما هو عند التدقيق ليس كذلك، لأن المقصود معناه البعيد.

[19] قارن هذا مع تقسيم البلاغي المعاصر :عبد العزيز عتيق. **علم البديع** (القاهرة: الآفاق العربية، 2004)، 61، حيث قسم المطابقة (الطباق) إلى ثلاثة أنواع، هي: مطابقة الإيجاب، مطابقة السلب، إيهام التضاد.

وفي الختام لا بد من وقفة قصيرة مع عدد من الآراء التقييمية التي تتناول الطباق كنوع بلاغي.

أول هذه الآراء رأي الحمويّ الذي قال:"والذي أقوله أن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر، ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد، وهو شيء سهل، اللهم إلا أن تترشح بنوع من أنواع البديع تشاركه في البهجة والرونق"[20].

فلكي يكون الطباق ناجحا ومقبولا، بحسب هذا الرأي، لا بد أن يرافقه نوع آخر من أنواع البديع. وبناء على هذا فقد جاءت معظم أمثلة الطباق عنده مرشحة بنوع أو أكثر من أنواع البديع. وقد احتلت التورية، في هذه الأمثلة، مكانا كبيرا.

ولعل شوقي ضيف قد تأثر بهذا الرأي أو نحوه حين قال في سياق حديثه عن الطباق الفلسفي عتد ابي تمام: " أرأيت إلى هذا الطباق؟ إنه من نوع آخر غير طباق الذاكرة الذي رأيناه عند البحتري والذي يعتمد على العبث اللفظي حين نذكر الوصل فيأتي الهجر، والليل فيأتي النهار"[21].

وقد وقف شوقي ضيف بوضوح مع الطباق الفلسفي، وتحدث عنه بإعجاب شديد. من ذلك مثلا قوله:"لم يكن أبو تمام يستخدم الطباق استخداما ساذجا بسيطا بل كان يستخدمه استخدامًا معقّدًا، إذ يلوّنه بأصباغ فلسفية قاتمة ما تزال تغيّر في إطاره، بل في داخله، تغييرات تنفذ به إلى لون جديد مخالف للطباق، فإذا هو من طراز آخر غير معروف، طراز فلسفيّ إن صحّ هذا التعبير، ففيه تناقض وفيه تضاد وفيه هذه الصور الغريبة. وكان أبو تمام يستخدمه قاصدا إليه عامدا وكان يسميه نوافر الأضداد"[22].

ثم أورد شوقي ضيف عددا من أبيات أبي تمام التي استخدم فيها نوافر الأضداد، ثم قال:" وعلى هذا النمط تمتزج أصباغ الطباق عند أبي تمام بهذه الأصباغ الفلسفية الغريبة من نوافر

[20] الحموي. **خزانة الأدب،م.س**، 71.

[21] شوقي ضيف. **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**. ط7. (مصر: دار المعارف، 1969)، 250.

[22] **ن.م.**

الأضداد، فإذا بها تخرجنا من أوقاتنا التي تقيّدنا وتطلقنا من عقال أمكنتنا، وتجعلنا نتحرر في داخلنا من كل ما يتعلق بنا".[23]

مقابل هذين الرأيين نجد الآراء الثلاثة التالية عند أحمد مطلوب[24]. أولها رأي مطلوب نفسه معلقا على ما قاله الحموي، وثانيها رأي القاضي الجرجاني، وثالثها رأي الصَّنعانيّ.

قال مطلوب:" وليس معنى ذلك أن التضاد أو المطابقة حينما تأتي من غير ترشيح تفقد قيمتها، بل إن التضادّ هو الذي يكسبها قيمة، لأنه يؤدي إلى إيضاح المعنى وتقريب الصورة".

وقال الجرجاني:" وأما المطابقة فلها شعب خفية، وفيها مكامن تغمض، وربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف".

وقال الصنعاني:" وهي من أكثرها {من أكثر الأنواع البلاغية} دلالة على الفصاحة في الكلام، وأدخلها في المنظوم والمنثور".

وعلى كل حال، فإن إطلاق أحكام تقييمية عامة عن أي نوع بلاغي، سلبًا أو إيجابًا، لا يمكن أن يكون مقبولاً. والأصح أن يحكم على كل نوع من خلال دراسة النصوص التي استعمل فيها، وتحليل الوظيفة المعنوية والجمالية التي أدّاها في تلك النصوص.

وبصورة مبدئية يمكن القول إن دراسات كهذه ستكشف كثيرا من الجوانب الإيجابية وكثيرا من الجوانب السلبية للطباق بكل أشكاله: المجرد وغير المجرد، الفلسفي وغير الفلسفي، ولذا سنترك الحكم لتلك الدراسات.

[23] **ن.م**، 253.

[24] مطلوب. **م.س**، 371.